

ثقافة الإمام

أ. عبد العزيز مراس مال (*)

مفهوم الثقافة الإسلامية :

الثقافة الإسلامية هي ذلك الكل الشامل للمعارف الشرعية والعلمية، والفلسفية والأدبية واللغوية والفنية التي أوجدها الإنسان في المجتمعات والأقطار الإسلامية، وممكنها من الانفتاح المبدع على الثقافات الإنسانية الأخرى، والتفاعل معها تأثرا وتأثيرا على مدى تاريخها الطويل وعصورها المختلفة.

هي فكر وأخلاق وروحيات وعلوم وتاريخ حضاري واجتهاد، وهي أيضا مجموعة الأفكار والخبرات والمعارف النظرية التي لا بد منها في كل ممارسة للعلوم التطبيقية أو المعتقدات الدينية أو المعاملات السلوكية.

مكونات الثقافة الإسلامية: تتجلى

الثقافة الإسلامية في ثلاث جوانب

لا بد أن يتضح مفهوم

الثقافة الإسلامية

توطئة

بالنسبة للإمام، حتى يحسن التعامل معها، بل وإنتاجها.

إن وسائل الإعلام، المرئية والمسموعة، والرأي العام يربط الثقافة الإسلامية بمعناها الشعائري والوعظي (العبادات والمعاملات) وهذا ليس إلا جانبا منها، في حين أنها هي بحد ذاتها الثقافة التي أثرت في الجزائريين والجزائريات عبر قرون عديدة، فقد أصبحت حسب أفهام البعض شأنا من الشؤون الدينية، يترك فيه النظر لعلماء الدين والشرعية وأن الجوانب الأخرى في نظرهم خارجة عن الثقافة الإسلامية، وكأنها لا تتجلى الفلسفة، ولا المعارف الباطنية، ولا العلوم الدقيقة، ولا العمارة، ولا الفن بكل أشكاله ومضامينه.

أساسية: الجانب الديني — الجانب اللغوي
— الجانب المادي.

1 — الجانب الديني: يشمل عددا من العلوم والفنون من أصول وفقه، وتفسير وحديث وغيرها من العلوم ذات الصلة بالعقيدة والشرعية.

2 — الجانب اللغوي: يشمل علوم الوسائل كلها، أو العلوم الآلية حسب تعبير ابن خلدون، وهي النحو والصرف والبلاغة والآداب، وغيرها مما يتصل باللغة العربية.

3 — الجانب المادي: تتفرع عنه كل العلوم الكونية من طب وفلك وطبيعة وكيمياء وجبر وهندسة وفزياء وعلوم العمارة، وغير ذلك مما يتصل بالكون وظواهره.

مسار الثقافة الإسلامية :

إن الثقافة الإسلامية أثبتت عبر مراحلها الحضارية، بأنها شكلت نسيجاً محكماً من العلاقات بين الشعوب والأمم والحضارات والثقافات، نظراً لما اتسمت به من إنسانية، وعالمية، وسماحة، وانفتاح، وتسخير الطبيعة للإنسان وقد أثبتت عبر

مسيرتها الحضارية مساهمتها للتجدد والمواجهة خلال قرون من الزمن، حتى كان عصر الانحطاط الذي اتسم بالتحجر، والركود، والتطرف، والمغالاة والمبالغة في الأحكام الشرعية التي أصبحت معرقة للعبقرية والاجتهاد. أعقبته النهضة الأوروبية التي هيمنت ماديًا وثقافياً على الأمم والشعوب ومنها الأمة الإسلامية.

هذه الثقافة الغازية وليدة المجتمع الرأسمالي وغير الرأسمالي، أصبحت بفعل أولوية المصالح المادية تسعى إلى المساس بالمقومات الروحية للثقافة الإسلامية، وبالمبادئ الأخلاقية خوفاً من يوم مشرق جديد للحضارة الإسلامية، فهي تمنح الأولوية للربح والاستحواذ، وتنشر الأفكار العنصرية والمتطرفة المعادية للأخلاق الإسلامية النبيلة والسليمة، بل تمجد الاستغلال والظلم والعدوان، والإضرار بالطبيعة والإنسان من خلال التلوث والتدمير والتخريب بفعل الحروب، واصطناع الخيرة التكنولوجية التي استعبدت الإنسان بعدما كان حراً.

وهو الأوجب في الخطابة، فيقف على مسائل فقه الفروع التي لا تنتهي، والتي ليس لها علاقة بثقافة الأمة وتوجهاتها، ويثبتها الزمانية والمكانية.

الخطاب المسجدي ينبغي أن يطابق ما ذكره الإمام علي كرم الله وجهه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله» وقول الشافعي عن أحد محدثين: «لو كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا» والقاعدة القرآنية المعروفة (قل لهم قولا ميسورا) [الإسراء/28].

كذلك التكلف والتصنع والتشدد مدموم، ومنبوذ، الذي لا يتجاوز المسامح إلى القلوب، ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون والمتفيهقون)) فالثرثار كثير الكلام، والمتشدد هو المتطاول على الناس في الكلام، المتفصح، المعظم لنفسه

ولأن، الثقافة الإسلامية مؤمنة بمبدأ الخيرية في الإنسان، فهي لا ترى في اختلافها عن الثقافات الأخرى، والغربية على وجه الخصوص، مدعاة للصراع الدائم معها، بل ترى في هذا المبدأ دافعا للحوار، والتفاعل، وأن الاختلاف بين الثقافات هو الذي يوفر إمكانية التعاون بينها.

المسجد كفضاء ثقافي ديني:

إن المسجد كفضاء ثقافي وديني ومؤسسة رائدة، نظرا لما يحمله الجزائريون من قدسية في قلوبهم له، باعتباره بيت الله، فيه تشع القيم الروحية، والإمام هو الذي يتولى حماية الثقافة الإسلامية الأصيلة.

لذا ينبغي تحريره من الأفكار المتشددة المنغلقة، والمتوقعة، وإنماء ثقافة التسامح والإخاء وغرس روح المواطنة في نفسية الإنسان الجزائري.

لقد ذكر أحد الأساتذة أن ما يؤسف له، هو عدم ارتباط الخطاب الدعوي للإمام بالواقع، حيث أن التحديات الراهنة تسعى لمحو العالم الإسلامي من الخريطة،

خيلاء، وتكبرا والمتفيقه المدعي التفقه في الدين بغير علم، ولا مرشد.

كما ينبغي أن يكون الزاد المعرفي للإمام ثريا، مثمرا، من خلال ثقافته الواسعة مما يزيد في احترام الناس وتقديرهم له، وهذا ما يصل إلى القلب، يروى عن الحسن البصري أنه جاءه رجل وقال له كلاما حسنا، فقال له الحسن:

«إما أن يكون بنا عيب أو بك، إن لم يؤثر فينا قولك، إن ما كان من القلب يصل إلى القلب».

لنا أيضا أن نقف وقفة التأمل من الذين يدعون جهلا وتشدقا التعالي على أولياء الله، وعدم الاعتراف بسرهم وعلمهم الواسع وإنكار صفاء قلوبهم، فيما يروي زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد، فوجد معاذا عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اليسر من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأنقياء الأخفياء، الذين إن غابوا

لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصايح الهدى، يخرجون من مظلمة)) لقد رسّخ النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم الثقافة القرآنية من دار الأرقم بن أبي الأرقم في الصحابة الكرام، قراءة وحفظا ودراسة وعملا وممارسة، ومن هنا كان الواحد منهم في سلوكه وحياته ومعاملاته أشبه بما أنزل في القرآن الكريم، فأصبحوا القدوة الصالحة لهذه المدرسة، الأولى التي تخرج منها عباقرة قادوا العالم المحيط بهم آنذاك إلى المراتب السامية.

من قصيدة للشيخ محمد باي بلعالم للطلبة :

ودعوا التطرف والتخوف جانبا

لا تسلكوا في منهج الجناح

خذوا طريقا سنها خير الورى

هي الكتاب وجملة الصحاح

ودعوا القشور للأراذل وانتقوا

لب العلوم تظفروا بنجاح

هذا ما يوافق قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل له به طريقا إلى الجنة،

المفضي إلى تمزق الأمة، فأكل بعضها بعضا عيانا».

خلاصة:

إن الشكيلة والحرفية، والتشدد والتطاول، والتفقه بغير علم ولا رشاد هي الآفات التي نقلت من الشارع إلى المسجد للأسف الشديد، وعلى الإمام أن يتسلح بالثقافة الإسلامية الواعية، ويتعد عن المحاباة والرياء، والتكلف، واصطناع المواقف حتى يرجع المسجد إلى مهمته الأساسية : (وأن المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحدا)[الجن / 18].

وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم (رضى بما يصنع)).

كما أن التحديات الراهنة، التي تواجه الأمة الإسلامية، والجزائر بصفة خاصة تتلخص فيما ذكره الشيخ محمد الزاوي في كلمة توجيهية:

«(التحديات) الخارجية صليبية في ثوب العولة البراقة وفخاخها، والداخلية دبّت في أوساط أمتنا وأورثت داء عضالا أضحى ينخر جسم الأمة ويبدد قواها.

ويتمثل ذلك في التعصب الذي تمنحض عنه الغلو والتطرف والخلاف

الهوامش

- عبد العزيز راس مال، د/حمداوي: مشروع مجلة الثقافة الإسلامية.
- أ/محمد بن سالم : كيف يكون الإمام مؤثرا؟
- أعمال الملتقى التكويني بعين صالح: رسالة الإمام وتوجيهه للرأي العام" 26 - 27 ربيع الأول 29/28 ماي 2003 .
- خالد حجاج: مكانة الإمام ودوره في المجتمع 2002.